

رُوحُ الطُّبُوعِ وَالنُّعْمَةِ فِي السُّبْبِ

في هذا الوقت الذي تتعرض فيه الشعوب الغنية المترفة كإنجلترا وفرنسا لضروب من الحرمان في كل شيء ، وتعرض للنكبات والكوارث في كل لحظة ، يعز علينا نحن أن نتنازل عما تعودناه من الذم والرفاهية والكماليات . ففي أوروبا توزع كل المواد الضرورية ببطاقات ، أما المواد الكيالية فقد أصبح معظمها محظورا أو غير موجود ، فلا يشكو أحد من هذه الحالة ولا يتبرم ، لأن للظروف أحكاما وللغروب ضرورات يجب أن يخضع لها الجميع . وعلى سبيل المثال نذكر أنه محظور في فرنسا أن يكون للفرد أكثر من حذائين ، ومحظور في ألمانيا وإيطاليا أن يحتوى الطعام على أكثر من نوعين ، وتبلغ كمية اللحم المقررة في الأسبوع للفرد في بعض الدول المحاربة مقادير تتفاوت بين نصف الرطل وثلاثة أرباع الرطل... وهكذا . وهؤلاء الأوربيون الذين تفننوا من قبل في إعداد المائدة ، كما تفننوا في الأزياء والكماليات يجدون في أنفسهم القدرة على الحرمان ويتعودون الخشونة في حياتهم ومطالبهم لأن الزمن والحوادث ومطالب الدولة لم تعد تسمح لهم بأكثر مما ينالون .

أما مصرفان كثيرين من التجار استغلوا الظروف فرفعوا الأثمان إلى درجة غير معقولة في بعض أنواع الأطعمة وسواها فلم نجد نحن في أنفسنا من القدرة على احتمال الحرمان ما تقاوم به هذا الاستغلال فمتمنع عن الشراء بالأثمان الباهظة حتى يثوب هؤلاء التجار إلى رشدهم ويقنعوا بأضعاف ما كانوا يرغبون .

منذ أيام لقيت شابا من المصريين يشتري قماشاً لبذلة بسعر أربعة جنيهات للتر الواحد ، ورأيت من يشتري أفة السمك التي كانت تساوي ثمانية قروش بثلاثين قرشا ، وأفة الشليك بثمانية قروش مع أنها تباع من المنتج بقرشين اثنين ... وقس على ذلك كثيرا من الأشياء التي يطلب التجار منا أن ندفع ثمنها أضعافا مضاعفة ، فلا نقوى على مقاومة إغرائها لنا برفض هذه السرقة المكشوفة .

ما ذا تسمى هذه الروح ؟ إن لم تكن هي "الميوعة" بعينها والنعومة التي تدل على المرض ولا تدل على الصحة ؟ وكيف نصنع لو اخفت هذه الأصناف من السوق ؟ أنموت أم نستطيع الحياة بدونها ؟ وإذا كنا نستطيع الحياة ولا شك فلم لا تقاوم رغباتنا المائعة في الكماليات أو الضروريات التي يستغلنا تجارها هذا الاستغلال ؟

يحملو لبعض الأثرياء عندنا أن يدفعوا الأثمان المضاعفة في الأشياء ، حتى يحسوا لبذلة اقتنائها وبجز الآخرين عن شرائها ، وهذا إحساس مشوه ممقوت ودليل على صغر النفس واعتدادها بالأعراس الرائلة لا بالميزات النابتة ولا بالتفوق الحقيقي في الحياة ، وهو يشير

في نفوس المحرومين شعور سيئا نحن في غنية عنه ، شعور التذمر والاحتقار لهؤلاء الذين يدلون عليهم بثرأثمهم . مع ضعف نفوسهم وأحلاقتهم عن احتمال أبسط الشدائد وأقل الحرمان ويكونون سببا في طمع التجار وغلاء الأسعار ، لأنهم لو كفوا عن الشراء لرخست السلع وباتت في مقدور الجميع ، وبيعت بالسعر الراجح المعقول .

يجب ألا تكون مقدرتنا على الشراء هي كل ما ننظر اليه حين تعرض علينا الضروريات أو الكماليات بأضعاف ثمنها . بل يلزمني أن نحسب حسابا لعوامل أخرى : فلا نرضى بأن يضحك علينا التاجر ويسرق نقودنا الكثيرة ، فإن النفس الكريمة تتور بظيئها على من يحاول استغلالها واستغلالها ، ولا نقبل أن تكون سببا في الغلاء الفاحش الذي يصيب مواطنينا الفقراء بأفدح الكوارث ، فالتضامن الاجتماعي في أبسط مظاهره يحتم علينا أن نقاوم هذا الغلاء رحمة بهم ، ولا نثير علينا نقمة الطبقات المحرومة حين نخال عليهم بملذاتنا وهم محرومون من الضروريات . والتاجر الذي يحد من الأغنياء من يشترون بضاعته مهما ارتفع ثمنها لا يقف جسعه عند حد لأنه ضامن وجود المشتري . فينبغي أن يقف التضامن الاجتماعي بين الطبقات والأفراد حائلا دون هذا الجشع حتى يرغم هذا التاجر على الوقوف عند الحدود المعقولة .

ويجب قبل كل شيء أن يحسب حساب الحرمان الإجباري فنستعد له بالحرمان الاختياري من بعض الأشياء التي لا يؤثر فقدانها في حياتنا ، أو يؤثر تأثيرا محتملا .

جاء في الحديث النبوي الشريف "أخشوشوا فإن النعمة لا تدوم" وزوال النعم في مثل هذه الاضطرابات لا تأتي به السنون والأعوام ، بل هو طي الليالي والأيام ، بل الساعات والحفظات ، فن الاخلاص للذات وحب النفس — بغض النظر عن الاخلاص للجموع والعمل للوطن — أن نروض نفوسنا على الخشونة وأن ندع هذه النعمة المساعة اختيارا قبل أن ندعها اضطرابا .

بعضنا يتأفف اليوم من ارتفاع أثمان الخمر والعطور ! أي والله هذا ما نسمعه من الكافرين من "أبناء الذوات" فكيف يصنع هؤلاء حين تختفى الخمر والعطور من السوق وتختفى معها ضروريات شتى : أيموتون أم يعيشون ؟!

إننا على أبواب صراع عنيف ، بل نحن في المعركة . ولأهم الخشونة التي تتعمل الحرمان وتعتبر على الشدائد التي ستفوز بالنضال . ولنا خيرا من أمم أوربا التي تقسى الأمرين من العارات الجوية ومن الجوع والعري والحرمان من جميع لذات . فلتنسج بإرادة القوية والروح الرياضية ، والخشونة الثلاثة بالرجل قبل أن تدهمنا الكوارث ونحن غارقون في الميوعة ولنعمه ، كأننا أمة من الغنايات الرقيقات المزج !